للحرب الشعبية في الصين وفيتنام والجزائر ، مهمتها تحرير فلسطين « من النهر الى البحر » . وليس هناك أدل على الطبيعة التبشيرية لهذا الفكر المقاوم من هذا المفهوم. فهو مفهوم يفضح هذا الفكر ليس فقط كامتداد للفكر الثوري السابق — فكر الهزائم والنكسات — بل كامتداد للعقلية الدينية الغيبية ، بل للعقلية البدوية السابقة لها . يتجاهل هذا المفهوم تماما الاوضاع الموضوعية التي تعمل فيها المقاومة الفلسطينية والتي تختلف بشكل جذري جامح عن الاوضاع التي عملت فيها الحروب الشعبية التي اتخذتها انموذجا لها . بما ان حربا من هذا النوع لا ترتبط بارادة أو بمقاصد ثورية او بعناصر ذاتية فقط بل هي نتيجة تفاعل هذه الاخيرة مع أوضاع موضوعية معينة ، وبما ان هذه الاوضاع التي رافقته وأحاطت تلك الحروب هي غير موجودة ومفقودة تماما في فلسطين المحتلة ، فانه يستحيل على المقاومة الفلسطينية ان تتحول الى حرب شعبية تحريرية على غرارها .

هذه الاوضاع هي : (١) أرض فلسطين أرض مكشوفة جرداء لا تعرف الكثير من الادغال والغابات والوديان والنهور والمستنقعات والجبال التي تسمح للمقاتلين بالتجمع بأعداد صغيرة او وفيرة ، بانشاء نقاط ارتكاز وانطلاق واختفاء بالضرب المفاجيء ثم بالتخفي . نظرة واحدة خاطفة الى خريطة فلسطين وخريطة أراضي الحروب الشعبية الاخرى ، وخصوصا أرض فيتنام — التي تشكل الحرب القائمة فيها الانموذج الاول للمقاومة — كافية بأن تكشف للتلميذ المبتدىء تميز المقاومة عن جميع الحروب الشعبية الاخرى بأرض لا توفر اي شيء من الاوضاع الطوبغرافية التي كانت العماد الذي قامت عليه وفيه نماذجها . أية نظرة فاحصة نلقيها على الحرب الفيتنامية مثلا تكشف بوضوح كيف ان جميع ما تقوم به وجميع اعمالها وجميع مخططاتها من تكتيكية واستراتيجية تعتمد على اوضاع طوبغرافية لا يوجد شيء منها في ارض فلسطين .

(٢) أرض فلسطين صغيرة الرقعة جدا . المسافة التي تفصل تل ابيب عن القاهرة نفسها لا تتجاوز الاربعمائة كيلومتر . هذا يعني ان المساحات الشاسعة التي تستطيع في غياب الشرط الاول ان توفر للمقاتلين القدرة على الحركة والتنقل دون ان يفاجئهم العدو ، التي قد تسمح لهم بضرب بعض المراكز والمنشآت بأعداد وفيرة نسبيا ثم التبعثر والاختفاء قبل ان يتمكن العدو من اللحاق بهم ، هذه المساحات مفقودة. فقوى الاحتلال تستطيع ان تصل بسرعة الى المقاتلين في اية نقطة يضربون منها او فيها ، لانها لن تجد أمامها اكثر من بضع عشرات الكيلومترات تفصل بينها وبين نقطة من هذا النوع.

(٣) الحدود القصيرة والمحدودة والمكشوفة التي تفصلها عن الاقطار العربية — لبنان وسوريا والاردن ، التي يمكن للمقاتلين ان ينطلقوا عبرها الى الارض المحتلة ، طبيعة الحدود هذه تسمح لقوى الاحتلال بسيادتها والتحكم بها ، وعن طريق التحصينات والاسلاك والحواجز الالكترونية ، بأن تجعلها ممتنعة يصعب جدا على المقاتلين اختراقها. وهذا ما حدث فعلا. (٤) عدد السكان العرب القليل الذي لا يوفر تغطية كافية لاعداد وفيرة من المقاتلين كي تضرب العدو ثم تتمكن من الاختفاء . فالعرب في فلسطين كلها يشكلون ٣٥٪ من سكان اسرائيل ، اي نسبتهم الى قوى الاحتلال هي عكس ما هي عليه في الحروب التي يتخذها الفكر المقاوم أنموذجا تحتذي به المقاومة . فبينما هي عشرة الى واحد في الجزائر ، وثلاثون الى واحد في فيتنام (اي في فيتنام الجنوبية فقط واثناء قمة الحشد العسكري الاميركي فيها) ومئات الى واحد في الصين ، فانها في حدود « اسرائيل » ١٩٤٨ واحد الى عشرة . (٥) هذا العدد القليل من السكان العرب الذي لا يتجاوز الثلاثمائة ألف في المناطق اليهودية معزول عن السكان اليهود في أحياء خاصة. وهذا يضيف كثيرا الى ضعفهم العددي في تغطية العمل الفدائي ، ويجعل من المستحيل عليه ان يتحول الى اكثر من عمل فدائي في هذه المناطق. هنا ايضا تتميز المقاومة الفلسطينية عن جميع الحروب الشعبية الاخرى .

(٦) ما ذكرناه في البند الرابع والبند الخامس يعني ان الاوضاع الموضوعية في فلسطين توفر لقوى الاحتلال بشكل طبيعي ما عجزت فرنسا والولايات المتحدة عن تحقيقه في الجزائر وفيتنام، اي استخدام كل وسيلة عسكرية وتكنولوجية وحشية ممكنة في تجميع السكان في مناطق القتال وعزلهم في امكنة منفصلة بغية تجريد الثورة من الكثافة السكانية التي تحتاجها في متابعة القتال وضرب العدو بشكل فعال ، ثم ان « اسرائيل » تستطيع (لقلة السكان العرب) ممارسة سياسة طرد وافناء تؤدي الى تفريغ المناطق العربية من العرب الى حد كبير ، او تفريغ بعضها تفريغا شبه كامل ، ان اخذ هؤلاء بتوفير تغطية خطرة للمقاتلين . حسب تقدير « التايمز » اللندنية ، وذلك من اكثر من عامين ،